

## الكِفَاحُ الدَّامِي

اتِّصَالَ قُرَيْشٍ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنِ سُلُولٍ:

قد أسلفنا ما كان يأتي به كفار مكة من التنكيلات والويلات ضد المسلمين وما فعلوا بهم عند الهجرة مما استحقوا لأجلها المصادرة والقتال إلا أنهم لم يكونوا ليفيقوا من غيهم ويمتنعوا عن عدوانهم بل زادهم غيظًا أن فاتهم المسلمون ووجدوا مأمنا ومقرأ بالمدينة؛ فكتبوا إلى عبد الله بن أبي ابن سلول وكان إذ ذاك مشركًا بصفته رئيس الأنصار قبل الهجرة؛ فمعلوم أنهم كانوا مجتمعين عليه وكادوا يجعلونه ملكًا على أنفسهم لولا أن هاجر رسول الله ﷺ وآمنوا به - كتبوا إليه وإلى أصحابه المشركين يقولون لهم في كلمات باتة: إِنَّكُمْ أَوْرَيْتُمْ صَاحِبِنَا وَإِنَّا نُنَسِّمُ بِاللَّهِ لَتَقَاتِلُنَّهُ أَوْ لَتُخْرِجُنَّهُ أَوْ لَنَسِيرُنَّ إِلَيْكُمْ بِأَجْمَعِنَا حَتَّى نَقْتُلَ مَقَاتِلَتِكُمْ وَنَسْتَبِيحَ نِسَاءَكُمْ فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ عِبْدَةِ الْأَوْثَانِ اجْتَمَعُوا لِقِتَالِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ لَقِيَهُمْ فَقَالَ لَقَدْ بَلَغَ وَعِيدُ قُرَيْشٍ مِنْكُمْ الْمَبَالِغَ مَا كَانَتْ تَكِيدُكُمْ بِأَكْثَرِ مِمَّا تُرِيدُونَ أَنْ تَكِيدُوا بِهِ أَنْفُسَكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَقَاتِلُوا أَبْنَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ تَفَرَّقُوا .

امتنع عبد الله بن أبي ابن سلول عن إرادة القتال عند ذلك لما رأى خورًا في أصحابه ولكن يبدو أنه كان متواطئًا مع قريش فكان لا يجد فرصة إلا وينتهزها لإيقاع الشر بين المسلمين والمشركين وكان يضم معه اليهود؛ ليعينوه على ذلك، ولكن تلك هي حكمة النبي ﷺ التي كانت تطفئ نار شرهم حينًا بعد حين<sup>(١)</sup>.

إِعْلَانُ عَزِيمَةِ الصَّدْعِ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ:

ثم إن سعد بن معاذ انطلق إلى مكة معتمرًا فنزل على أمية بن خلف بمكة فقال لأمية: انظري ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت فخرج به قريبًا من نصف النهار فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمنًا وقد آويتم الصباة وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم؛ أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالمًا فقال له سعد: - ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعك

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٢٣٠ .

ما هو أشد عليك منه طريقك على أهل المدينة<sup>(١)</sup>.

### وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ:

ثم إن قريشاً أرسلت إلى المسلمين تقول لهم: لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب وسناتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم في عقر داركم.

ولم يكن هذا كله وعيداً مجرداً فقد تأكد عند رسول الله ﷺ من مكان قريش وإرادتها على الشر ما كان لأجله؛ لا يبيت إلا ساهراً أو في حرس من الصحابة فقد روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضی الله عنها قالت: سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة فقال: «لست رجلاً صالحاً من أصحابي يجرسني الليلة» قالت: فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح فقال: «من هذا؟» قال: سعد بن أبي وقاص، فقال له رسول الله ﷺ: «ما جاء بك؟» وقع في نفسى خوف على رسول الله ﷺ فجننت أحرصه فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام<sup>(٢)</sup> ولم تكن هذه الحراسة مختصة ببعض الليالي بل كان ذلك أمراً مستمراً، فقد روى عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يجرس ليلاً حتى نزل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧] فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة وقال: «يا أيها الناس انصرفوا عني فقد عصمني الله عز وجل»<sup>(٣)</sup>.

ولم يكن الخطر مقتصرًا على رسول الله ﷺ بل على المسلمين كافة، فقد روى أبيه ابن كعب قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه<sup>(٤)</sup>.

### الإِذْنُ بِالْقِتَالِ:

في هذه الظروف الخطيرة التي كانت تهدد كيان المسلمين بالمدينة وتنبئ عن قريش أنهم لا يفيقون عن غيهم، ولا يمتنعون عن تمردهم مجال أنزل الله تعالى الإذن بالقتال للمسلمين ولم يفرضه عليهم قال تعالى ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على

(١) الرحيق المختوم ١٨٢.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي.

(٣) رواه الترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) سيرة الرسول أبو عمار ٢٣٢.

نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣١﴾ [الحج: ٣٩] وأنزل معه آيات بيِّن لهم فيها أن هذا الإذن إنما هو لإزاحة الباطل وإقامة شعائر الله قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمْرُو بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَلَيْكُمْ الْأَمْرُ ﴿٣١﴾ [الحج: ٤١].

الإذن مقتصرًا على قتال قريش ثم تطور فيما بعد مع تغير الظروف؛ حتى وصل إلى مرحلة الوجوب وجاوز قريشًا إلى غيرهم<sup>(١)</sup>.

### الغزوات والسرايا قبل بدر<sup>(٢)</sup>:

ولما نزل الإذن بالقتال رأى رسول الله ﷺ أن يسط سيطرته على الطريق الرئيسي الذى تسلكه قريش من مكة إلى الشام فى تجارتهم واختار لذلك خطتين:

**الأولى:** عقد معاهدات مع القبائل التى كانت مجاورة لهذا الطريق أو كانت تقطن ما بين هذا الطريق وما بين المدينة .

**الثانية:** إرسال البعث واحدة تلو الأخرى إلى هذا الطريق .

ولتنفيذ هاتين الخطتين بدأ بالتحركات العسكرية فعلاً بعد نزول الإذن بالقتال

وكانت أشبه بالدوريات الاستطلاعية وكان المطلوب منها كما أشرنا:

- الاستكشاف والتعرف على الطرق المحيطة بالمدينة والمسالك المؤدية إلى مكة

- عقد المعاهدات مع القبائل التى مساكنها على هذه الطرق .

- إشعار مشركى يثرب ويهودها وأعراب البادية الضارين حولها بأن المسلمين

أقوياء ، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم .

- إنذار قريش عقبى طيشها ؛ حتى تفيق من غيها الذى لا يزال يتوغل فى أعماقها ؛

لعلها تشعر بتفاقم الخطر على اقتصادها وأسباب معاشها ، فتجنىح إلى السلم وتمتنع عن

إرادة قتال المسلمين فى عقر دارهم وعن الصد عن سبيل الله وعن تعذيب المستضعفين

من المؤمنين فى مكة ؛ حتى يصير المسلمون أحراراً فى إبلاغ رسالة الله فى ربوع

الجزيرة<sup>(٣)</sup> .

(١) الرحيق المختوم ١٨٣ - ١٨٤ .

(٢) سعى المؤرخون ما خرج فيه النبي بنفسه غزوة حارب فيها أم لم يحارب ، وما خرج فيه أحد قادته سرية .

(٣) الرحيق المختوم ١٨٣ - ١٨٤ .

**فِيمَا يَلِي أَحْوَالُ هَذِهِ السَّرَايَا بِإِيجَازٍ :****١- غزوة الأبواء:**

هى أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ وتعرف بغزوة ودان أيضاً - وهما موقعان متجاوران بينهما ستة أميال أو ثمانية - ولم يقع قتال فى هذه الغزوة بل تمت مودعة<sup>(١)</sup> بنى ضمرة - من كنانة - وكان الذى وادعه منهم عليهم سيدهم مخشى بن عمرو الضمرى وكانت هذه الغزوة فى صفر ٢هـ ، وكان عدد المسلمين مائتين بين راكب وراجل<sup>(٢)</sup> .

**٢- سرية عبدة بن الحارث:**

وهى أول راية عقدها ﷺ وكان عدد السرية ستين من المهاجرين ، وكانت قوة الأعداء من قريش أكثر من مائتين ما بين راكب وراجل - وكان قائد المشركين عكرمة بن أبى جهل وقيل: أبو سفيان بن حرب - وحصلت مناوشات بين الطرفين على ماء رابع ، وقد رمى سعد بن أبى وقاص بسهم ؛ فكان أول سهم رمى به فى الإسلام ، وكانت السرية بعد رجوعه من الأبواء<sup>(٣)</sup> .

**٣- سرية حمزة بن عبد المطلب:**

بعث رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر فى ثلاثين راكباً من المهاجرين فلقى أبا جهل بن هشام فى ثلاثمائة راكب من أهل مكة فحجز بين الفريقين مجدى بن عمرو الجهنى وكان حليفاً للفريقين فانصرف القوم عن بعض فلم يقتتلوا<sup>(٤)</sup> .

**٤- غزوة بواط:**

خرج رسول الله ﷺ فى شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة فى مائتين من أصحابه ، وكان مقصده أن يعترض عيراً لقريش كان فيها أمية بن خلف فى مائة رجل وألفين وخمسمائة بعير فلم يلق النبى ﷺ كيداً فرجع إلى المدينة<sup>(٥)</sup> .

(١) مودعة: معاهدة .

(٢) ابن هشام (١ / ٣٥٨ - ٣٥٩) ، السيرة النبوية للصلابي (١ / ٤٢٤) .

(٣) ابن هشام (١ / ٣٥٩ - ٣٦٠) ، السيرة النبوية للصلابي (١ / ٤٢٤) .

(٤) ابن هشام (١ / ٣٦٠) .

(٥) السيرة النبوية للصلابي (١ / ٤٤٣) .

**٥- غزوة العشيرة:**

غزا الرسول ﷺ قريشاً لاعتراض قوافلها التجارية وكان معه مائة وخمسون من أصحابه فبلغ العشيرة بناحية ينبع ، فأقام بها جمادى الأولى ، وليالى من جمادى الآخرة وفاتته العير ووادع فى هذه الغزوة بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ثم عاد إلى المدينة ، ولم يلق حرباً<sup>(١)</sup> .

**٦- سرية سعد بن أبي وقاص إلى الخرار:**

بلغ النبى ﷺ أن عيراً لقريش فى طريقها إلى مكة ، وأنها قد أخذت طريق الخرار<sup>(٢)</sup> فانتدب سعد بن أبي وقاص لقيادة سرية لاعتراضها يقول سعد: "فخرجت فى عشرين رجلاً أو إحدى وعشرين على أقدامنا نكمن بالنهار ونسير بالليل ؛ حتى صبحناها صبح خمس فوجد العير قد مرّت بالأمس ، وقد كان النبى ﷺ عهد إليّ ألا أجاوز الخرار ولولا ذلك لرجوت أن أدركهم"<sup>(٣)</sup> .

**٧- غزوة سفوان:**

سببها أن كُرز بن جابر الفهري أغار على سرح<sup>(٤)</sup> المدينة فخرج رسول الله ﷺ فى طلبه واستعمل على المدينة زيد بن حارثة ؛ حتى بلغ وادياً يقال له: سفوان من ناحية بدر وفاته كرز بن جابر ؛ فلم يدركه وهى غزوة بدر الأولى ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة<sup>(٥)</sup> .

**٨- سرية عبد الله بن جحش:**

فى رجب سنة ٢هـ بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين إلى نخلة<sup>(٦)</sup> وكان رسول الله ﷺ كتب له كتاباً ، وأمره أن ينظر فيه ؛ حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به ، ولا يستكره من أصحابه أحد .

(١) ابن هشام (١ / ٣٦٣) ، سيرة الرسول أبو عمار ٢٣٦ .

(٢) الخرار: موضع بالحجاز قرب الجحفة .

(٣) سيرة الرسول أبو عمار ٢٣٦ .

(٤) سرح: الإبل والمواشي التي تسرح للرعي بالغداة .

(٥) ابن هشام (١ / ٣٦٣) .

(٦) نخلة: اسم مكان .

فسار عبد الله يومين ثم قرأ الكتاب فإذا فيه: "إذا نظرت في كتابي هذا فامض ؛ حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم" فقال: سمعاً وطاعة ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضى إلى نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتية منهم بخبر ، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم فمن كان منكم يريد الشهادة فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فمأض لأمر رسول الله ﷺ فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد غير أنه لما كان في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعمتة بن غزوان بعيراً لهما كانا يعتقبانه متخلفاً في طلبه .

وسار عبد الله بن جحش ؛ حتى نزل بنخلة فمرت عير لقريش تحمل زيباً وأدماً وتجارة وفيها عمرو بن الحضرمي وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان مولى بنى المغيرة فتشاور المسلمون وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام ، وإن تركناهم دخلوا الحرم ثم اجتمعوا على اللقاء ؛ فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله ، وأسروا عثمان والحكم وأفلت نوفل ، ثم قدموا بالعين والأسيرين إلى المدينة وقد عزلوا من ذلك الخمس لرسول الله ﷺ وهو أول خمس في الإسلام ، والحضرمي أول قتيل في الإسلام ، وعثمان والحكم أول أسيرين في الإسلام أنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه وقال: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام» وتوقف عن التصرف في العير والأسيرين .

ووجد المشركون فيما حدث فرصة لاتهم المسلمين بأنهم قد أحلوا ما حرم الله ، وكثر في ذلك القيل والقال ؛ حتى نزل الوحي حاسماً هذه الأقاويل وأن ما عليه المشركون أكبر وأعظم مما ارتكبه المسلمون: ﴿ يَسْتَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكَ حَتَّى يَرْدُوكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ [البقرة: ٢١٧] أى: إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به وعن المسجد الحرام وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم وفتنتهم للمسلمين في دينهم حتى يردوهم إلى الكفر بعد إيمانهم أكبر عند الله من القتل ؛ فلما نزل القرآن بهذا الأمر قبض رسول الله ﷺ العير

والأسيرين ، وبعثت قريش للرسول ﷺ في فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان فقال ﷺ : « لا نفيديكموهما؛ حتى يقدم صاحبانا - يعنى: سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان- فإن نخشاكم عليهما فإن تقتلوهما نقتل صاحبكم» فقدم سعد وعتبة فأفداهما رسول الله ﷺ منهم<sup>(١)</sup> .

### النتائج والدروس المستفادة من الغزوات والسرايا:

١- إشراك الرسول ﷺ للمهاجرين في هذه الغزوات والسرايا إحياءً لقضيتهم في أنفسهم أولاً وإنهاكاً للاقتصاد القريشى ومحاصرته واستعادة لبعض الحقوق المسلوبة .  
٢- حققت هذه الغزوات والسرايا نتائج وأهدافاً مهمة منها:

(١) إدراك أعداء الإسلام لقوة المسلمين؛ فالجيش الإسلامى لا يتوقف ليلاً ونهاراً مما جعل الجميع يعمل ألف حساب قبل أن تحدّثه نفسه بغزو المدينة أو مناصرة أحد من الأعداء عليها .

(ب) ضرب المصالح الاقتصادية لقريش وقطع طرق تجارتها خصوصاً إلى الشام .

(ج) كسب بعض القبائل وتمجيم دور الأعراب فقد حالف رسول الله ﷺ قبيلة (جهينة) وغيرها من القبائل كانت تتعاون مع قريش فأصبحت هذه القبائل تمثل خطراً على قريش .

كما قام النبى ﷺ بتحجيم دور الأعراب الذين يفرضون إتاوات على القبائل المارة بمناطق نفوذهم ولكن رسول الله ﷺ طاردهم فى غزوة سفوان (بدر الصغرى) فلم يستطيعوا مهاجمة المدينة ودخلوا فى اتفاقات مع المسلمين .

(د) تدريب الصحابة على إتقان فنون القتال وقد ساعد ذلك على إعداد الذين ساهموا فى تحقيق الكثير من الفتوحات مثل أبى عبيدة بن الجراح قائد فتوحات الشام سعد بن أبى وقاص صاحب القادسية وفتح المدائن وغيرهم الكثير .

(هـ) حققت سرية عبد الله بن جحش نتائج مهمة وفيها دروس وعبر وفوائد عظيمة منها:

(١) ابن هشام (١ / ٣٦٣ - ٣٦٦) ، الرحيق المختوم ١٨٧ - ١٨٨ .

١- كتب رسول الله ﷺ كتابًا لعبد الله بن جحش وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين لبيان أهمية إخفاء الخطط الحربية ومنها خط السير حتى يكون الجيش فى أمان من الأعداء .

كما تظهر آثار التربية النبوية فى هذه السرية من خلال طاعة قائد السرية لأوامر رسول الله ﷺ دون تردد معطيًا من نفسه القدوة الحسنة لجنوده وهو يقول لهم: فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فليطلق ومن كره ذلك فليرجع ؛ فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ وساروا إلى منطقة أعدائهم وتجاوزوها ؛ حتى أصبحوا من ورائهم وهذا دليل على قوة إيمانهم وتضحيتهم بأنفسهم فى سبيل الله كما يدل على مدى الدقة التى تمت بها العملية .

٢- استغلال قريش للمقتال فى الشهر الحرام وقامت بالتشهير برسول الله ﷺ وأصحابه وقالت قريش: " قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال .

كما قام اليهود - كعادتهم - بتصعيد الموقف وقالوا: إن الحرب واقعة لا محالة بين المسلمين وقريش إلى أن نزلت الآيات ترد بقوة على دعايات قريش المغرضة موضحة أنه وإن كان الشهر الحرام لا يحل فيه القتال ؛ ولكن لا حرمة عند الله لمن هتك حرمان الله وصد عن سبيله .

٣- حرص القائد على سلامة جنوده:

فعندما تخلف سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بسبب مجتئهما عن بعير لهما رفض رسول الله ﷺ أن يرد الأسيرين لقريش قبل أن يعود سعد وعتبة ؛ مخافة أن توقع قريش أى ضرر بهما ؛ حرصًا عليهما<sup>(١)</sup> .

\*\*\*

(١) السيرة النبوية للصلاحي (١ / ٤٤٤ - ٤٥٥) .